الأغنية الوطنيّة الأردنيّة: ما بين التّقليد وافتقاد التّجديد

عزيز "احمد عوني" ماضي، صفاء هلال حداد*

ملخص

جاءت هذه الدراسة لتتناول الأغنية الوطنيّة الأردنيّة وتناقش واقعها، وكيف تحوّلت سماتها وأنماطها إلى نمط واحد غالباً؟ في ظل خصوصية هذا النمط الغنائي، إذ تمثّل الأغنية التي تتغنّى بالوطن وحبه والانتماء إليه أكثر نماذج الغناء قربا لذائقة المستمع الأردني، وتميل لها الشريحة الأكبر من المجتمع الأردني على اختلاف أطيافه، وذلك من خلال ما تشكّله تلك الأغنية من نموذج غنائي تعبيري غنيّ، مرتبط بثقافة الشعب الأردني الذي شكّل أصل الغناء الأردني، وعُدّ جوهرا لما تطور عنه على صعيد الثقافة الموسيقيّة الغنائيّة التقليديّة ثانيا.

وكيف تم ابتزاز أهميّتها لتخدم تشوّه المحتوى؟ وما مدى ارتباطها بالهوية الثقافية الأردنية اليوم، ومدى الاعتراف بها كممثل لهذه الهوية؟

وبالنظر مليّا إلى خصوصية الأغنية الوطنيّة في الأردن، وما يزخر به أرشيف الغناء الوطني الأردني من أغانٍ تحمل أسمى القيم والمعاني القوميّة والوطنيّة؛ إلا أن كل هذا الامتياز والتميّز لم يكن كافيا لحماية الأغنية الوطنيّة الأردنيّة، ولم يمنع انجراف بعض من القائمين عليها باتجاه واحد أو أكثر من التيّارات الفنيّة التي اجتاحت عالم الغناء العربي، في ظل خصوصية الأهداف التي خُلقت هذه الأغنية لأن تخدمها أولا، ومراعاةً لما تفرضه هذه المرحلة الحاسمة من عمر الشعوب من ضرورة توظيف الأغنية خير توظيف؛ لتكون خير عون في غرس المفاهيم السليمة للوطنيّة والمواطنة، متّكلين على دورها الفعّال الذي لا يمكن إغفاله أبدا.

تتناول هذه الدراسة مدى علاقة الأغنية الوطنية بما يشيع من تسميات يفرضها واقع المنطقة العربية بين الحين والآخر؛ فتغيب ثم تعود لتطفو على السطح، مثل "الأغنية السياسية"؟

الكلمات الدالة: الأغنية الوطنية، الأغنية الأردنية، القومية، الهوية الثقافية.

المقدمة

يشكل الغناء أحد أبرز أدوات التعبير الفعلي التلقائي في حياة الإنسان عموما، وفي حياة الإنسان العربي على وجه الخصوص، من خلال ما يتيحه من حيز واسع لبث المشاعر والأفكار والآراء دون قيود؛ بارتباطه المباشر بالشعر ووجدانيات الإنسان العربي أولا، وقد مثّل نموذجا حيا لتوثيق الأحداث والمنعطفات التي مرّ بها في مختلف ميادين الحياة، وشكل أصدق توثيق للمواقف الحياتية والاجتماعية والتاريخية والسياسية، وتقلبات الحياة اليومية على اختلاف أحداثها، بحلوها ومرها؛ بانتصاراتها وهزائمها ثانيا، فشكل بذلك صورة حية تعكس انفعالاته وأحاسيسه، وقدم توثيقا أكثر حقيقية ودقة لما يدور في حياته؛ من خلال ارتباط المضمون الشعريّ بالواقع المقصود من الأغنية، وما يترتب على طبيعة الكلمات من خصوصية تُفرض بآلية غير مباشرة على اللحن، فتتضح من خلال البنية اللحنية (المقاميّة والإيقاعية) للأغنية.

وبالنظر إلى خصوصية الغناء في حياة الإنسان العربي؛ وأهمية الجانب القومي والوطني لديه، وارتباط العاطفة الجيّاشة لديه بالوطن والأرض؛ فقد حظي التعبير الغنائي باهتمام كبير في هذا الصدد، يتضح من خلال خَصّه بحصّة لا يُستهان بها من مخزون الشعر العربي على مدى قرون، ورَبْط الكثير من هذه القصائد والأشعار بالموسيقا، لتتحول من عالم المكتوب المقروء بصورته المجردة؛ إلى عالم من العاطفة والخيال اللامحدود، في نموذج مسموع؛ محسوس لكل إنسان على قدر شعوره واتساع حدود خياله، ولتفرض بذلك الأغنية الوطنية –ذات الشعر الوطني واللحن المدروس– أهميتها، إلى حد مثلت فيه جزءا من رمزية الشعوب والدول كما الأعلام والمعالم، وأصبحت تمثّل الرمز الوطني المسموع الذي يقف الجميع احتراما وإجلالا له إذا ما سُمع؛ من خلال أحد

* قسم الموسيقا، كلية الفنون الجميلة، جامعة اليرموك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2017/2/19، وتاريخ قبوله 2017/5/13.

 © 2019 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

أشكالها وهو النشيد الوطني.

تمثّل الأغنية التي تتغنّى بالوطن وحبه والانتماء إليه أكثر نماذج الغناء قربا لذائقة المستمع الأردني، وتميل لها الشريحة الأكبر من المجتمع الأردني على اختلاف أطيافه؛ من خلال ما تشكّله هذه الأغنية من نموذج غنائي تعبيري غنيّ، مرتبط بالثقافة الأردنية للشعب الأردني بشقّيها: الشعبي أولا؛ الذي شكّل أصل الغناء الأردني، وهو ما عُدّ جوهرا لما تطور عنه على صعيد الثقافة الموسيقيّة الغنائيّة التقليديّة ثم المعاصرة ثانياً.

وقد اتّسم هذا النمط الغنائي بالمباشرة والتلقائيّة؛ ما أهله لأن يحظى بخصوصية انفرد بها عن مختلف أنماط الغناء الأردني؛ الشعبيّة والتقليديّة والمعاصرة، وتمثّلت تلك الخصوصيّة باقترانه بواقع الحياة الأردنية الناتج عن تفاعلات مختلف مقوّمات الحياة الأردنية: الوطنيّة، والسياسيّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة، ليقدّم نِتاج هذه التفاعلات مجتمعة أو متفرقة، متفقة أو متنافرة؛ على هيئة تعبير لفظي موزون أصبح شعرا، وامتزج باللحن فغدا أغنية – أي من خلال الكلمة وارتباطها باللحن– لتُشكّل المسمّى العام لهذا النمط الغنائي؛ وهو "الأغنية الوطنية".

وهنا كان لابد من الإشارة إلى التنوّع الداخلي الذي يعكسه هذا النمط الغنائي اعتمادا على الموضوع، الذي يتضح بدوره من خلال المضمون الشعري واللحني للأغنية، إذ بالرغم من ارتباط هذا النمط بالفن الشعبي شعرا أو/ ولحنا ولفترة طويلة نسبيا؛ إلا أن التحفظّ والانتقاد هما سادة الموقف بالنّظر إلى أغلب التجارب الغنائية الآنيّة، التي تتظاهر بأنها نِتاج تجارب تتبنّى إحياء هذا التوجه نحو الشعبية، بحجة أن تكون أقرب فأقرب إلى المستمع الأردني؛ بالتزامن مع ما يدّعيه القائمون عليها بأنها نموذج للتّكامل العاطفي والتعبيري مابين المحتوى الشعري (الكلمات) الذي يتناول موضوعا وطنيا؛ وبين توظيف الألحان الشعبيّة المتوارثة، مراهنين على أمرين: أولهما؛ العاطفة الوطنية الجيّاشة لدى الأردنيين، وثانيهما؛ ميل المستمع الأردني للحن الشعبي، وولاؤه لثقافته الموسيقية الشعبية أكثر من أي نمط غنائي آخر.

وبالنظر مليّا إلى خصوصية الأغنية الوطنيّة في الأردن، التي لم تتأخّر عن ركب القوميّة التي ظهرت طابعا ساد الفكر الموسيقي والغنائي العربي عشرينيّات القرن الماضي؛ وباسترجاع ذهني لما يزخر به أرشيف الغناء الوطني الأردني من أغانٍ تحمل أسمى القيم والمعاني القوميّة والوطنيّة؛ التي لم تقتصر على ما قدمه الفنان الأردني وحسب؛ وإنما يشتمل أيضا على ما قدمته نخبة من رموز الموسيقا والغناء العربي من أعمال غنائية خالدة أُهديت للأردن وقيادته وشعبه، متخذة بصدق كلماتها وعمق معانيها وروعة ألحانها مكانة مميزة في سفر الغناء الوطني الأردني، فباتت جزءا أصيلا من مكوناته مع الزمن، إلا أن كل هذا الامتياز والتميّز لم يكن كافيا لحماية الأغنية الوطنيّة الأردنيّة، ولم يمنع انجراف بعض من القائمين عليها باتجاه واحد أو أكثر من التيّارات الفنيّة التي اجتاحت عالم الغناء العربي، كما أن كل ما قُدّم من روائع الغناء الوطني لم يستطع أن يضع خطا أحمر عريضا اعتباريّا؛ يضبط الحدود الدّنيا لمحتوى هذه الأغنية على أقل تقدير، ولا يَسمح للأغنية الوطنية بأن تُقيّم بأدنى من حدّه؛ اعتبارا واحتراما للأهداف التي خُلقت هذه الأغنية لأن تخدمها أولا، ومراعاةً لما تفرضه هذه المرحلة الحاسمة من عمر الشعوب من ضرورة توظيف الأغنية خير توظيف، لتكون خير عون في غرس مفاهيم السليمة للوطنيّة والمواطنة، متّكلين على دورها الفعّال الذي لا يمكن إغفاله أبدا.

مشكلة الدراسة:

تتمثّل مشكلة الدراسة الحالية في الحاجة الماسّة لدراسة الأغنية الوطنية الأردنية من منظور تخصصي، يبحث في مضامينها الشعرية واللحنية الموسيقية، وذلك من خلال وضعها –بصفاتها الحالية– في المواجهة أمام ماضيها العريق أولا، والبحث في "موجة السطحيّة" التي تعصف بها ثانيا، إضافة إلى ضرورة التدقيق في واقع هذا النمط الغنائي؛ بوصفه عاملا أساسيا من العوامل المؤثرة في التكوينات الثقافية والاجتماعية، التي أصبحت –أي تلك العوامل– بحاجة لدراسة حثيثة فرضها ويفرضها الواقع المحيط، بالإضافة إلى البحث في ضرورة البحث بمدى واقعيّة أن يكون هناك ما يشبه التوجّه العام ليلعب الدور الأبرز في توجيه محاور الأغنية الوطنيّة إلى هنا أو هناك!

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تناول الأغنية الوطنيّة الأردنيّة من حيث إبراز الخصائص الشعرية والموسيقية اللحنية التي يجب أن يتمتع بها محتوى هذا النمط من الغناء، وذلك من خلال التركيز على مكوناتها المختلفة وعلاقتها الوطيدة بالمستمع، وبالتالي دراسة مدى قدرتها على بث روح الانتماء والمواطنة على اختلاف أشكالها، وتناقش واقعها وأبرز ملامحها، وكيف تحوّلت سماتها وأنماطها

غالبا إلى نمط واحد؟ وكيف تم ابتزاز أهميّتها لتخدم تشوّه المحتوى؟

أهمية الدراسة

تنبع أهمية هذه الدراسة مما تفرضه الحاجة لمراجعة ماضي الغناء الوطني والتدقيق في واقعه، ودراسة واقع مضمونه الشعري والموسيقي اللحني وقيَمِه الفنيّة، في ظل المفارقات المتلاحقة التي تحيط بالمجتمعات، وما ينتج عنها من انعكاسات قد تمسّ المشهد الثقافي الفني العام، وحساسية موقف الأغنية الوطنية في إطار هذه المتغيرات، بغية الوصول إلى ما من شأنه توفير البيئة الصحيحة لنمو الثقافة الوطنية الفنية التي نتمنى، كما تبرز أهمية هذه الدراسة من خلال تناولها لمدى ارتباط الأغنية الوطنية بالهوية الثقافية الأردنية اليوم، ومدى الاعتراف بها كممثل لهذه الهوية التي وُجِدت لخدمتها أصلا، وبالتالي النظر في الاختلاف الحاصل بها، عسى أن تكون مثل هذه الدراسات مؤشرا حقيقيا على واقع الأغنية، داعما لفرصة تصحيح وضعها وعودتها إلى سابق عهدها على الأقل؛ إذ لم نتمكن من تطويرها.

منهج الدراسة:

اعتمد الباحثان المنهجين الوصفي التحليلي والمقارن كمنهجين رئيسين لإعداد هذه الدراسة.

الدراسـات السابقـة:

الدراسة الأولى: صلاح الدين، بنان. (2016) **البعد الوطني في الأغنية الشعبية الفلسطينية خلال الفترة ما بين 1917– 1948**[1].

هدفت الدراسة إلى توضيح البعد الوطني في الأغنية الشعبية الفلسطينية خلال الفترة ما بين عامي (1917 – 1948)، التي تعد جزءا أساسيا من التراث الشعبي الذي يمثل ذاكرة الشعب وأصالة هويته الفلسطينية، وقد تضمنت الأغنية الشعبية الفلسطينية الكثير من النشاطات الحياتية والمناسبات الوطنية للشعب الفلسطيني، خاصة ما يتعلق بالمراحل الوطنية، والتطورات والأحداث السياسية التي مرت بها القضية الفلسطينية، حيث احتل الحديث عن الوطن المساحة الأكبر في مجمل الأغاني الشعبية الفلسطينية، فأصبحت الأغنية الشعبية شكلا من أشكال المقاومة وتأريخا لمجمل الأحداث التاريخية التي عصفت بالقضية الفلسطينية وما لازمها من نضال شعبي.

تتفق هذه الدراسة مع الدراسة الراهنة في تناولها للمضامين الوطنية ضمن أنماط الغناء الشعبي، من حيث تضمين المحتوى الغنائي الشعبي بمضامين وطنية.

الدراسة الثانية: دكّاك، أمل. (2013) **قضايا الجولان في أغنياته الوطنية (تحليل مضمون أغاني الجولان في الإذاعة السورية)**[2].

هدفت تلك الدراسة إلى البحث في أحد أبرز الجوانب المتعلقة الأغنية الوطنية السورية، وهي الأغنية التي تتناول قضية الجولان المحتل، بالاعتماد على تحليل مضمون الأغنية الموجهة إلى الجولان، والتعريف بالموضوعات ذات الصلة بالجولان في الأغنية السورية.

تتفق تلك الدراسة مع الدراسة الحالية في تناولها لمدى خصوصية الجوانب الوطنية في مضمون الأغنية.

الدراسة الثالثة: عبيدات، نضال. (2013) **التغيرات التي طرأت على الأغنية الوطنية الأردنية منذ استقلال المملكة وحتى الآن**[3].

هدف البحث إلى التعريف بأبرز الملحنين والمطربين الذين لحّنوا وغنّوا الأغاني الوطنية الأردنية، إضافة إلى التعرف على الخصائص الفنية المميزة للأغنية الوطنية الأردنية، وما طرأ عليها من تغيرات منذ استقلال المملكة الأردنية الهاشمية.

تتفق تلك الدراسة مع الدراسة الراهنة في تناولها للأغنية الوطنية الأردنية من منظور الخصائص والمتغيرات.

الدراسة الرابعة: حسين، يوسف السماني. (2011) **دور الأغنية الوطنية في نشر ثقافة السّلام: الثنائي الوطني أنموذجا**[4].

هدفت تلك الدراسة إلى تناول دور الأغنية الوطنية في نشر ثقافة السلام بالدراسة والتحليل، وقد تمثّلت مشكلة البحث في كيفية

1 صلاح الدين، بنان. (2016) البعد الوطني في الأغنية الشعبية الفلسطينية خلال الفترة ما بين 1917– 1948. مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والإجتماعية، المجلد 43، ملحق 2، الجامعة الأردنية، الأردن.

2 دكّاك، أمل. (2013) قضايا الجولان في أغنياته الوطنية (تحليل مضمون أغاني الجولان في الإذاعة السورية). مجلة جامعة دمشق عدد خاص (الجولان)، جامعة دمشق، سوريا.

3 عبيدات، نضال. (2013) التغيرات التي طرأت على الأغنية الوطنية الأردنية منذ استقلال المملكة وحتى الآن. رسالة دكتوراه، كلية التربية الموسيقية، جامعة حلوان، مصر.

4 حسين، يوسف السمانى. (2011) دور الأغنية الوطنية في نشر ثقافة السلام: الثنائي الوطني إنموذجا. رسالة ماجستير، مركز دراسات وثقافة السلام، الخرطوم:جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، السودان.

توظيف الغناء الوطني ومكوناته لتساهم بصورة فاعلة في نشر ثقافة السلام، من خلال الدراسة ميدانية تم من خلالها استعراض خارطة الغناء الوطني، التي بموجبها تم اختيار عينة الدراسة، ثم تحليل عينة الدراسة للتعرف على الخصائص الأساسية للغناء الوطني؛ وتقصي الطرق والوسائل التي يمكن أن تؤدي إلى نشر ثقافة السلام بواسطة الأغنية الوطنية ومكوناتها.

تتّفق هذه الدراسة مع الدراسة الراهنة في تناولها للأغنية الوطنية من جانب إمكانية توظيفها في خدمة فكر وطني محدد، ونشر الوعي في جانب من جوانب الثقافة الوطنية.

خصوصية المحتوى الشعري والفني للأغنية الوطنية

يُحيلنا الحديث عن النشيد الوطني إلى الحديث عن الأغنية بشكل عام؛ باعتبار هذه الأغنية ضربا من الخطاب الإنساني باختلافها وتنوع ألوانها، وباعتبار النشيد الوطني صنفا من هذا الخطاب وواحداً من ألوان الأغنية (فضيلة، 2011: 9).

يمثّل النشيد الوطني انعكاسا لأهمية توظيف الأغنية بمضمونها الشعري واللحني لخدمة الأهداف الوطنية، وتأكيدا لقدرتها على تمثيل الهوية الوطنية، فهي أولا نشيد وطني، وتعبير رسمي، ورمز دولة وشعب بشعرها ولحنها، قبل أن تكون نمطا غنائيا متنوع الألوان؛ وعنوانا عريضا لمختلف أشكال الأغنية: كالوطنية العاطفية، والحماسية (الثورية)، وما يسمى بالأغنية السياسية، وغيرها.

وبالنظر إلى النشيد الوطني؛ فإن الهدف العام والغرض الأساس منه يتمثل في غرس روح الوطنية في أفئدة المتلقين، وتحريضهم على الجهاد إن كان نشيدا ثوريا، أو حثّهم على حبّ الوطن والتمسك به وعدم الانسلاخ عنه في حالة ما كان نشيدا تَالٍ للثورة. كما يراد به إقناع الناس بحفظ التاريخ ليكون النص الشعري الوطني بذلك حاملا لمجد الوطن ومحمولا في نفوس المتلقين (فضيلة، 2011: 2).

وهنا كان لابد من التوجّه إلى الوطنية؛ هذا العنوان العريض، الذي يضم في حناياه كل مصطلحات المواطنة والانتماء والولاء للوطن، والحرص على أرضه وممتلكاته، المحمّسة لحمياته والذود عنه والدافعة لبنائه، وذلك بغرض ربط هذه المقومات العاطفية الوطنية الأساسية، والتدليل على مبررات ارتباطها بالأغنية كإحدى أبرز وسائل التواصل والتعبير الثقافي الفني الراقية؛ ذات القبول والتأثير المباشر على المستمع، وبالتالي إبراز دور الأغنية في هذا الشأن الهام، وتبرير ضرورة التركيز على دورها في تعزيز هذه المفاهيم بدءا من التربية الأوليّة للفرد، لتُسهِم في تنشئة مواطن يدرك معاني تلك المفاهيم بالاعتماد على منهجية متوازنة سليمة.

ومن منطلق تربوي فإن المواطنة مرتبطة بالانتماء الذي يمثل حاجة أساسية للإنسان، الانتماء للوطن، والأمة، والأرض؛ أي الموطن، مكان وجودنا وعيشنا وأساس هويتنا واستقرارنا، وهنا حتى تُخلق المواطنة يجب التركيز أكثر على ضرورة اعتماد تربية قيَميّة (ذات قيمة)، بالتزامن مع مراقبة المكتسبات التي يكتسبها الفرد من محيطه بدءا من الأسرة والمدرسة، بهدف تعزيز كل هذه الجوانب التربوية الوطنية المقصودة، وبالتالي ضمان أن تتجسد هذه المفاهيم وتنعكس قِيَماً وسلوكاً، بالاعتماد على توجيه قائم على مبدأ القول والفعل، لينشأ –نتيجة لذلك– السلوك المطلوب.

وهنا تجدر الإشارة إلى اعتبار النشيد الوطني أحسن معبّر ومترجم لقيم الثورة وأمجاد الأمة، ممّا جعله لصيقا بالدولة التي يروي وقائعها، والفضل في ذلك يعود إلى شعراء أحكموا صنعه وأتقنوا في نَظْمه معنى ومبنى وأداء، ليكون النشيد في الأخير مرآة تعكس صدق الرواية والمشاعر وتساهم في التواصل بين الأجيال المتلقية له عبر الزمن بما في ذلك من تعزيز في حبّ الوطن، وصقل وتربية وتوجيه النشء إلى الحفاظ على القيم التي يجسدها عبر كلماته الهادفة (فضيلة، 2011: 2).

وبالنظر إلى مدى شمولية الغناء الوطني؛ فقد تنوعت مواضيع الأغنيات الوطنية وتمثلت بشكل رئيس بالأغنية: الوطنية العاطفية، والقومية، والحماسية، وهناك ما تسمى بالأغنية السياسية، وكلها تحدد هوياتها من خلال مضمونها الشعري (الكلمات)، كما أن هناك وجهات نظر تشير إلى إمكانية اعتبار تلك الأغنيات التي تدعو إلى العمل والبناء، أو تحمل فكرا بنّاءً لمشروع أو فكر وطني، تدعو إلى اعتبارها نوعا من الغناء الوطني، بحكم محتواها المنسجم مع المبادئ الوطنية وحب الوطن والانتماء إليه.

الأغنية الوطنية ضمن إطار الإرث الثقافي الشعبي العربي

الأغنية هي الأصل في فن الموسيقا العربية، لأن شعبنا العربي في جميع أقطاره يميل منذ الزمان الأول إلى الغناء أكثر من ميله إلى الموسيقا البحتة التي تعزفها الآلات غير مصحوبة بالغناء، وليس هذا عيبا ولا قصورا في طبيعة الشعب العربي ووجدانه، فلكل شعب طبيعة ووجدان صنعتهما عوامل تاريخية ينفرد بها (النجمي، 1993: 183).

وتشير المصادر العربية إلى أن العرب قد اشتهروا منذ القدم بحب الغناء الذي يصحبهم من المهد إلى اللّحد، ويعود ذلك بشكل أو بآخر إلى الشعر وما يتميز به من موسيقا وإيقاع بسبب الأوزان والقوافي، مما منح الإنسان العربي ذوقا رفيعا في الموسيقا والغناء

وأذنا تتقبل الإيقاعات التي تتفق مع ذوقه الموسيقي (القيّم، 2014: 10).

تشير الأغنية الوطنية ضمن إطار الثقافة الموسيقية العربية إلى ارتباطها بمنهجين فنيين موسيقيين، متقاربين من حيث المبدأ؛ متباينين من حيث المنهجية والتطبيق، وهما موروث الفكر الموسيقي الشعبي –من خلال ما يُعرف بالأغنية الشعبية– والفكر القومي، واللذان يشتركان في أن الموروث الشعبي الذي يعكس جانبا من الهوية الوطنية الفنيّة هو المنطلق الأساس لكليهما، مع الاختلاف من حيث منهجية التعامل؛ ما بين اتخاذ الشعبية بشكلها المجرد أو اعتمادها أساسا للتجديد عليها، وهذه الأخيرة تشكّل نقطة اختلاف ما بين أتباع الفكر الموسيقي القومي أنفسهم.

فمن حيث خصائص الأغنية الشعبية، فإن من سماتها أنها ترتبط بالتعبير الأدائي الوظيفي الاجتماعي، والعادات والتقاليد والأعراف، والتجارب والخبرة الايجابية التي حفظت من الآباء والأجداد، وأيضا يستمدها من البيئة ذلك الوعاء الرحب الذي يحتضن الخزين الموروث، فكلا المجتمع والبيئة هما المعلم الأول لكل فنان شعبي أصيل (جاسم، 2010: 529).

ومن هنا فإن ارتباط الأغنية الوطنية بفكر الإنسان وتعبيره الفطري من خلال ما تحمله من كلمات وألحان نابعة من واقعه المعاش؛ يعبر فيها عن حبه تجاه الوطن والأحداث التي تخصه، هي سمة تربطها بالموروث الشعبي والأغنية الشعبية، بالإضافة إلى تحقيقها لسمة أخرى من سمات الشعبية التي تتمثل بالذيوع والانتشار، وقد يكون ارتباطها بالوطن ومشاعر الانتماء له هو ما جعلها أكثر خصوصية واعتبارا في وجدان الفرد؛ إذا ما قورنت بغيرها من أنماط الغناء الشعبي، فكيف وهي تجمع كلا السمتين!

كما أن صفة التنوع في الأغنية الوطنية لا تقتصر على الموضوع وحسب؛ وإنما فقد جعل ارتباطها بالشعب ومشاعره الفرصة متاحة لأن تصاغ هذه الأغنية المطواعة بكل ما من شأنه أن يجعلها أكثر قربا من وجدان الشعب؛ لنجد كلمات المضمون الشعري في العديد من الأغنيات الوطنية قد صيغت باللهجة المحليّة المحكيّة، استثمارا لبساطتها ووضوح معانيها، مع وجوب أن يكون هذا المحتوى مدروسا من حيث انتقاء الألفاظ ووضوحها، وعمق المعاني، مما جعلها أكثر قربا للمستمع، وهو ما جعل بعضها تصنف أحيانا كأغنيات شعبية (فلكلورية)، ويتزامن الاشتراك مع الأغنية الشعبية من حيث المحتوى اللفظي؛ بالتشارك معها والأخذ منها على صعيد المحتوى الفني الموسيقي، لنجد أغنيات استمدت محتواها النغمي من ألحان فلكلورية شعبية، مع الأخذ بضرورة عدم التحول إلى الأساليب المستهلكة؛ والأخذ بالمنطق بهذا الشأن.

وعلى صعيد آخر فإن لدور هذه الأغنية وأهميتها أبعاد تمثلت –حتى عهد قريب– في تسابق كبار المؤلفين بقصائد كتبت أغلبها لتكون قصيدة مجردة؛ قبل أن يُكتب لها أن تلحن لتصبح أغنية على يد كبار الملحنين، حيث استهوت الأغنية الوطنية كبار الملحنين لما تحمله من عواطف جياشة، تتيح المجال للإبداع الفني الموسيقي، فنجد أرشيف الغناء الوطني زاخرا بأعمال رائعة، تتمتع ألحانها بزخم لحني مقامي وإيقاعي؛ وتنوع ما بين المقامات والإيقاعات، سعيا للارتقاء باللحن حدّ الانسجام مع الشعر، للوصول إلى تكاملية في التعبير؛ ولتحقيق لغة أجدر على الوصول إلى وجدان المستمع، ثم تقدم بعدها بأصوات كبار المغنين، وهو ما قد يفسّر التوجه الكبير الحاصل نحوها اليوم؛ الذي يصل حد الانجراف، طمعا في شغف المستمع بها وانتظاره لها؛ وقبوله الأولي لها من منطلق مشروعها الوطني، قبل أن يُصدم مؤخرا بتراجع كفاءة محتوى الكثير مما يقدم على ساحة الغناء الوطني اليوم.

لابد من التنويه إلى ميزة تتصف بها الأغنية الوطنية قد تجعل منها السهل الممتنع، فهي من حيث المبدأ وعلى صعيد المحتوى الوطني الهادف؛ تستحق ما تحظى به من صفات القبول الجماهيري، والانتشار السريع، والاهتمام من قبل مختلف الأوساط الوطنية الحكومية والثقافية وغيرها، التي تتجلى من خلال خصّها بمهرجانات الأغنية الوطنية في العديد من الدول العربية، وما تحظى به من بث شبه متواصل عبر أثير الإذاعات وقنوات التلفزة الرسمية والخاصة، كما تُفرد لها مساحات لا يُستهان بها على صفحات الصحف والمجلات؛ عبر مقالات تتناول الأغنية الوطنية وأهميتها وأثرها الكامن في مضمونها، وهو ما قد يبرر توجه كبار الفنانين إليها؛ مخلّدين أعمالا لا تنسى، وذلك تقديرا لأهميتها واعترافا بقوة تأثيرها، وهو أيضا ما يفسر الجزء اليسير من تسابق المتسارعين إلى تسلق سلم الفن والشهرة، باتخاذهم الأغنية الوطنية وسيلة مضمونة لتحقيق تلك الأهداف للأسف، مستغلين أهمية دورها ومتجاهلين حساسية محتواها الشعري والفني الموسيقي، وهو ما أضر بها مؤخرا بشكل أو بآخر.

الأغنية الوطنية: انعكاس غنائي للفكر القومي العربي

إن أساس ارتباط الأغنية الوطنية بالفكر الموسيقي القومي غالبا ما يكمن في التوجه لبناء نموذج فني موسيقي آلي أو غنائي قائم على محتوى شعري وفني وطني، حريص على اتخاذ كل ما من شأنه ترسيخ معالم الهوية الوطنية واعتمادها أساسا في الاستمداد من الجوهر الشعبي القومي، أو التجديد بالاعتماد عليه؛ انطلاقا من الوعي بأهمية ذلك ومدى تأثيره في ترسيخ روح الانتماء والمواطنة.

وباستعراض تاريخي موجز؛ نذكر بأن نشأة الفكر الموسيقي القومي قد ارتبطت تاريخيا بإحساس الأوروبيين بحاجة أوطانهم إلى ضرورة تعزيز مشاعر الوحدة والولاء والانتماء، والتمسك بكل ما يمتّ لتاريخها وثقافتها بصلة؛ حيث كان له الدور الأبرز في بزوغ فجر الاتجاه القومي في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، ومن حيث الفكر الموسيقي؛ فقد تمثل ذلك الشعور الوطني بالتمسك بالتراث القومي وإحياء دوره بتفعيله كمادة أساسية ضمن قوالب التأليف الموسيقي (Kamien, 2000: 367- 368). وقد وجدت نخبة من الموسيقيين العالميين في الألحان الشعبية بمقاماتها وإيقاعاتها وآلاتها كنزاً يغنون فيه مؤلفاتهم بعيدا عن التقليد والتكرار، حيث شكلت الألحان الشعبية إطاراً مرناً يمكن لخيال المؤلّف أن يتنقل ضمن حدوده بحرية تؤمن له مجالاً واسعا من التجديد والابتكار (أبو المجد والخولي، 2006: 35-36).

ومن حيث ارتباط الغناء الوطني العربي "القومي" بموروثه الغنائي؛ فقد ارتبط به ارتباط الوطنية بوجدان الفرد العربي، وهنا لابد من الإشارة إلى ما يميز التراث الشعبي العربي بشكل عام عن تراث بقية المجتمعات والشعوب الأخرى؛ من أنه يُعد أحد دعائم القومية العربية، فهو يتشابه في معظم أنحاء الوطن العربي، وبخاصة تلك الأشكال التي تتصل بالتكوين القومي العربي الثقافي والتاريخي والحضاري، كالسير الشعبية والقصص الشعبي وبعض ألوان الغناء الشعبي (صلاح الدين، 2016: 1131).

أما من حيث القومية كنهج فني موسيقي؛ فإن الغناء الوطني العربي قد مثّل جانبا لا يُستهان به من هذا الفكر، فنجده يحقق أبرز أسسه من حيث ارتباطه بالمحتوى الموسيقي الذي يحمل خصوصية الهوية الوطنية على الصعيد المحلي، والقومي على الصعيد العربي، بالتزامن مع الارتباط بالسمات الغنائية الشعبية، فأنتج أغنيات كأنما تعكس فكر القومية الموسيقية من منظور الغناء العربي إلى جانب الفكر الوجداني القومي العربي، تجلّت –في كثير من الأحيان– بالاعتماد على الموروث الثقافي والأدبي الشعري، واللحني الموسيقي الشعبي؛ لبناء أغنية تكون أقرب للفرد قادرة على التعبير عن مشاعره الوطنية.

وهنا فإنه لابد للذاكرة من أن تسترجع تلك الأعمال الغنائية الوطنية الخالدة، التي تستحق بجدارة أن تسمى "الأغنية القومية"، لما تمتّعت به من نموذجية في المحتوى؛ حيث ابتعدت بكل جرأة في محتواها عن كل مظاهر التحيّز والإقليميّة والعنصريّة، ونبذت العنف والقسوة والتقسيم، وتحاشت المغالاة بالحماسيات بلا داعٍ، وغيرها من المظاهر التي بدأت تزعزع ثقة المستمع بما يُنتج مؤخرا تحت مسمّى "أغنية وطنية"، تلك الأغنيات التي تغنّت بالوطن لأجل الوطن، وكأنها القالب الغنائي الذي يوحد وطنيات القومية العربية على اتساع رقعة العالم العربي، فاستحقها كل بلد عربي، ولامست وجدان كل مستمع عربي وكأنها أهديت لوطنه وعبرت عن وطنيته، التي وان حوت اسم البلد فإنها تتغنى بالقومية العربية وانتسابه لها واعتزاز شعبه بها، فتسابق الشعراء لنظم كلماتها، والملحنون لخصّها بأروع الألحان، وتغنّى بها كبار المغنيين العرب، نذكر منها:

الجدول (1): أغنيات وطنية ذات صبغة قومية

اسم الأغنية	المؤلف	الملحّن	المؤدي
بكتب اسمك يا بلادي	محمد سلمان	محمد سلمان	جوزيف عازار
بلاد العرب أوطاني	فخري البارودي	الأخوين فليفل	المجموعة
حلوة يا بلدي	مروان سعادة	بليغ حمدي	داليدا
صباح الخير يا وطناً	عباس الديلمي	سهيل عرفه	أمل عرفة وفهد يكن
موطني	إبراهيم طوقان	محمد فليفل	المجموعة
وضّاء وجهك يا بلدي	عمر أبو سالم	إميل حداد	إسماعيل خضر
وطني	الأخوين رحباني	الأخوين رحباني	فيروز
وطني الشمس	جريس سماوي	روحي شاهين	المجموعة
وطني سماؤك	الأخوين رحباني	الأخوين رحباني	فيروز
يا بلادي أنت حرّة	محمد حسين	جميل العاص	رويدا العاص

الأغنية الوطنية الأردنية: خصوصية التوثيق وتمثيل الهوية

تتأثر الأغنية الوطنية بخصوصية المجتمع بوصفها جزءا من التكوين الفني الغنائي المتوارث قيما وفنا، كونها تعكس واقعه؛ وتختلف باختلافه من حيث الواقع الوطني وما ينتج عنه من انعكاسات على الواقع الشخصي والاجتماعي والفكري والثقافي وغيرها، فهي مرآة حالِه حرّا كان أم محتلا، سلما يعيش أم حربا.

وعلى ذلك وصفت بأنّها من أكثر أشكال الفنون الموسيقيّة ديمقراطية، تتأثر وتتفاعل مع جميع الأحداث المهمة التي تحدث في حياة المجتمع مجسّدة ذلك في الكلام، وفي تنغيم يعكس روح الحدث، وهي جزء مهم جداً لا يتجزأ من الثقافة (القواسمة، 2008: 2).

ومن منطلق هذا الارتباط؛ وبالنظر إلى الأغنية الوطنية الأردنية من جهة؛ وخصوصية الغناء الشعبي الأردني من جهة أخرى؛ فإن جوهر الغناء الوطني الأردني وبعضا مما تطور عنه قد شاطَرَ الغناء الشعبي شيئا من خصوصيته وسماته، فبالإضافة إلى ارتباطه المباشر بوجدان الفرد من منطلق الوطنية وتوثيقه لواقعه، إلا أنه قد مرّ بمرحلة من التشكيل بناء على شعبية المحتوى؛من حيث: بساطة الكلمات التي ارتبط بعضها باللهجة العاميّة (المحكيّة)، وبساطة المضمون الموسيقي (اللحني والإيقاعي)، التي غالبا ما كان مؤلفها مجهولا، وأخيرا تمتعها بصفة الذيوع والانتشار لما تلقاه من استحسان وقبول لدى الفرد؛ حالها في ذلك حال الأغنية الشعبية.

وفي ذلك انعكاس لسمات الغناء الشعبي على الأغنية الوطنية الأردنية في مرحلة من مراحلها، وفيه ما يبرر جزءا من محاولات بعض من القائمين على الأغنية الوطنية اليوم للاستظلال بظل الغناء الشعبي، والتقرب منه لاستفادة من شهرته –على الساحة المحلية– ونفوذه الواسع من حيث القبول والتأثير التلقائي على المستمع الأردني.

لقد بدأ الاهتمام بالهوية الوطنية الأردنيّة في عشرينيّات القرن الماضي ضمن اهتمام دول العالم الثالث بالظاهرة القوميّة، وقد ظهرت الروح القوميّة في البلاد العربية لمناهضة المستعمرين؛ فصار يُبحث عن الهويّة الوطنيّة في كلّ شيء، في الأدب والفن والتاريخ والاجتماع وغير ذلك، وبدأنا نسمع عن الأجناس الأدبيّة والفنيّة الخاصة بكلّ بلد، وبالنسبة للأردن فقد بدأت تتشكّل في منتصف القرن الماضي ملامح الهوية الوطنية، وجرى التركيز على الأغنية؛ لأنّها تبرز عقلية الشعب الأردنيّ، وتعبر عن خواطره النفسيّة والفنية، وتعكس ذوقه الجمالي، وتظهر همومه المعيشية، وتدبّ فيه الحماس للدفاع عن وطنه، وتجسّد حضارته وتاريخه، وتخلد أبطاله وعظماءه (القواسمة، 2008: 2).

وعلى صعيد الأغنية الوطنية ذات الطابع الشعبي فقد استطاع رواد الغناء الأردني مثل توفيق النمري، وجميل العاص، ومحمد وهيب وإسماعيل خضر وسلوى العاص وغيرهم أن يقدموا إنتاجا غنائيا وطنيا يوصف بالنموذجي، ومثل تعبيرا جليا عن مكانة الأغنية في الخطاب الوطني الثقافي بشكل عام، فيشير الباحث القواسمة[5] إلى تلك الأغنيات التي حملت هويتنا الوطنية من خلال احتفائها بالعاصمة عمان بوصفها داراً للعرب وملتقى أشواقهم ومحبتهم، وتغنيها بالجيش العربي وقيادته الهاشمية، وذكر أمجاد الوطن التاريخية، والافتخار برجاله وبناته الأعزاء، وذكر المعارك التي خاضها الجنود البواسل دفاعا عن عزة الوطن واستقلاله، وامتداح الأسلحة التي استخدمها الجيش العربي في معاركه التاريخية، مع الأخذ بخصوصيات المرحلة وطنيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، التي كان لها تماس مباشر مع تغيرات متعاقبة في الواقع كانت الأغنية وقتها تقدم لحاجة المرحلة أولا قبل أن تكون أغنية بشكل مجرد!

وإذا ما قورنت تلك المرحلة من عمر الأغنية الوطنية بمرحلة المعاصَرة؛ فإننا نلحظ ما كان يتمتع به الشاعر (الكاتب) والملحن والفنان (المطرب) الأردني من النضج الفني، والوعي بحساسية المرحلة ومتطلباتها، وخصوصية تأثير الأغنية الوطنية التي انعكست من خلال اختيار المحتوى بعناية فائقة.

وفي معرض الحديث عن تمثيل الهوية الوطنية؛ فإنه لابد من التعريج نحو نمط آخر من أنماط الغناء الوطني القومي العربي الذي نفتقده اليوم، الذي تنعكس القومية الغنائية العربية فيه من خلال الأداء والمؤدي بشكل رئيس؛ فنجد أن الغناء للأردن لم يكن حِكرا على المطرب الأردني فحسب؛ وإنما استهوى كبار المطربين العرب؛ حبا وتقديرا للأردن ملكا وقيادة وشعبا، بالإضافة إلى تقديرهم عظمة ذلك الإهداء لما كانوا يشهدوه من خصوصية وتميّز واهتمام بالأغنية الوطنية الأردنية؛ يوم كانت تعيش عصرها الذهبي إلى ما قبل القرن الحالي، المتزامن مع غياب هذا النمط الغنائي، وهذه الأغنية الوطنية الأردنية التي صدحت بها أعظم الحناجر العربية، تلك الأغنيات التي نَحنّ لقيمها الثقافية الفنية الشعرية والموسيقية التي كانت تقدمها برقيّ للمستمع الأردني، ومن أشهر تلك الأغنيات:

5 القواسمة، محمد، (2008) الهوية الوطنية في الأغنية الأردنيّة، بحث منشور، جامعة البلقاء التطبيقيّة، الأردن.

الجدول (2): أغنيات وطنية أردنية أدّها فنانون عرب

اسم الأغنية	المؤدي	اسم الأغنية	المؤدي
أردن أرض العزم	فيروز	عمّان– أعود وكلّي حنين	ماجدة الرومي
أردن الكوفية الحمرا	سميرة توفيق	عمّان في القلب	فيروز
أردن يا ديرة كرم	وديع الصافي	فدوى لعيونك يا أردن	سميرة توفيق
صباح الخير يا عمان	أنغام	هذا الضحى – عمّان	فيروز
عمّان	نجاة الصغيرة		

ومن هنا فقد شكل الغناء الوطني أداة الخطاب الأقوى تأثيرا في أحلك الظروف التي قد تعصف ببلد ما، فكان الرسالة الموجهة إلى الفرد عقلا ووجدانا، محدثة تلك التوليفة المقنعة ما بين القلب والعقل، وهذا كله باعتراف موحد من قبل الأوساط السياسية والعسكرية والثقافية وغيرها، من خلال اختيار منبر الغناء الوطني كأول المنابر التي تتجه إليها أنظار المعنيين بإدارة شؤون الأوساط سالفة الذكر؛ لتوجيه رسائلها ذات المضامين الوطنية، وهو ما قد جعل من الغناء مُسيّسا في كثير من الأحيان من منطلق تحديد الوجهة المقصودة: تعزيزا لفكر وطني ما، أو نبذا لفكر مناقض للوطنية التي نحياها.

وفي ذلك ما يقودنا للحديث عما نلحظه مؤخرا من انعكاس لطابع الغناء المُسيّس لبعض الأحزاب أو الجماعات في الجوار على اختلافها –بغض النظر عن مبادئها وتوجهاتها– حيث أنها توظف الأغنية لبث سياساتها وتعزيز مفاهيمها ضمن إطار من التغنّي بالوطن والتضحية في سبيله والذود عنه، أو تستّرا به –بحسب مبادئ تلك الجماعات– تحت مسمّى الغناء الثوري أو غيره، وهي ما قد تتسبب بالخلط ما بين مسميات الأغنية أو تصنيفها كوطنية أم غيرها، وذلك بالنظر إلى ما تحمله بعض تلك الأغنيات من رسائل مبطّنه، تبرز العنف على السطح؛ وتصفه شكلا من أشكال البطولة والجهاد، وتصوّر الوطنية والانتماء على أنها الضرب والقصف والتهديد، وهذا من أخطر ما قد يكون؛ إذ أن منها ما يشوّه فكر الحضّ على الجهاد في سبيل الوطن والأرض، ويبثّ السُّم بالمفاهيم المتعلقة بهذا الخصوص، ولكن ما يعزينا هنا هو اعتراف هذه الجماعات –وحتى المتشددة منها– بدور الأغنية وتأثيرها الذي يخاطب وجدان المستمعين، ويغرس الفكرة في أذهانهم بآلية تخاطب المشاعر أولا، ولكن المشكلة هي في أسلوبهم من حيث إتباع منظومة التركيز على كثافة المحتوى، بالإضافة إلى تعزيزه بالمؤثرات الصوتية لشحن المستمع والضغط على عواطفه بشكل متسارع؛ لتتشكل الرؤية لديه قبل أن تصل العقل حتى!

وفي ذلك ما يفرض الحاجة لمناقشة قضية "تداخل المسمّيات"، بعد وقت "ظلت فيه الأغنية الوطنية تمثّل نمطا مهما من أنماط الغناء في علاقتها بالهموم والقضايا الوطنية، كما ظلت تنادي من خلال مضامينها بقيم الحرية والسلام والمساواة وغيرها من المبادئ؛ إلى جانب غرس روح التربية الوطنية في الأجيال المتعاقبة، ولكن تداخلت معايير الأغنية ما بين الوطنية والسياسية، واستغُلت بعض الأغنيات لتمسى وطنية"، وهو ما يفرض ضرورة تسليط الضوء على كل ما يدور حول خطوط التماس بين الأغنيتين[6].

الأغنية الوطنية الأردنية: جدليّة التقليد وافتقاد التجديد

حملت الأغنية الفلكلورية الأردنية الهوية الوطنية الأردنية من خلال تعبيرها عن عادات الأردنيين وتقاليدهم في الأفراح والأتراح، ومن خلال إعلائها شأن الوطن، والتغني بأمجاده وتاريخه وآثاره، وتمجيد أبطاله، وقادته الهاشميين بدءاً من الشريف حسين بن علي، والملك المؤسس، إلى الملك عبد الله الثاني ابن الحسين، كما ظهرت الهوية الوطنية الأردنية في جميع ألوان الأغنية الفلكلورية سواء اللون البدويّ أم الريفيّ أم البحريّ (القواسمة، 2008: 3).

وبالنظر إلى خصوصية الموروث الشعبي العربي ومكانته، وارتباطه المباشر والمتجدد بثقافة الإنسان العربي وفكره وواقعه وأحاسيسه منذ القدم، وتلك الثقة التي منحها هذا الإنسان للأغنية الشعبية –كجزء لا يتجزأ من موروثه الأصيل– لأن تكون جديرة بتوثيق ما تحويه دواخله، وأن تترجم عواطفه منذ أن كانت توصف بأنها أولية وبسيطة من حيث البنية الشعرية واللحنية؛ أي منذ صدورها عنه فطريا، كنتيجة لتفاعل فكره وعواطفه مع الواقع، والتحفيز للتعبير عن نِتاج هذا التفاعل، فإن الأغنية الأردنية تعدّ خير ممثل لهذا النموذج؛ حيث "يرتبط أهم عامل في توجيه الموسيقا في الأردن بالموسيقا الشعبية الأردنية والعربية، التي تطبع الأغاني الأردنية بطابعها. والأغاني

6 إبراهيم، رؤى، الأغنية الوطنية – بين الاستغلال السياسي والتعبير عن الوطن، صحيفة الراكوبة، السودان، (2012).

التي تنتمي لهذه النوعية تحتل مكانا رفيعا بين أساليب الغناء العربي، وتأكد هذا الموقع من خلال المهرجان الأول للأغنية العربية الذي عقد في دمشق عام 1977[7]. وهكذا نرى أن في الأردن طرائق موسيقية مختلفة ولكن لا تحظى كلها بنفس القدر من النجاح وبعض هذه الطرائق تعتبر وسائل مرحلية للوصول إلى أساليب عربية جديدة في التعبير" (حمام، 2010: 72).

ومن هنا فإنه لم يكن التوجّه للتعاطي مع النمط الغنائي الشعبي –كجزء من أساليب تكوين الأغنية الوطنية– أمرا يثير الاستهجان؛ في ظل خصوصية الوطن والانتماء إليه بالنسبة للعربي بشكل عام، والأردني على وجه التحديد.

لكن وبالرغم من مكانة المضمون الشعبي إلا انه لا يمكن تجاهل ما يحدث مؤخرا من انجراف في هذا الاتجاه؛ وما ينتج عنه من سوء استعمال وتشويه للموروث الشعبي، فبات يستغل بطريقة مجحفة بحقه، ولابد من التركيز على هذا الجانب لأنه الطابع الأكثر انتشارا في الآونة الأخيرة، حيث أصبح المستمع المتذوق للغناء متنبّها للخلل الحاصل قبل المختصين والمعنيين أنفسهم، فبتنا نلحظ معالم التكرار بغية السرعة والاختصار، وما يعانيه التراث من إتجار، وكأن خاصية مجهوليّة المؤلف والملحن قد عفت المناصرين لهذا الأسلوب و"المرتزقة" منه من المسؤولية تجاه الحقوق الفكرية والفنية، وقدمت لهم مضمونا غنيا مجانيا، وكفالة سبقت العرض من حيث قبول اللحن وانتشاره، فتحول المشهد من الاعتزاز بالتراث وإعادة إحيائه إلى تشويه موسيقاه، وأحيانا إلصاقه بكلمات كثير منها لا يحمل القيم الوطنية بشكلها الصحيح، ومنها ما يستحق أن يوصف بأنه بلا معنى، إما من خلال استغلال المضمون الشعبي بشكل مستهلك، أو التلاعب غير المسؤول في بنيته؛ إلى حد تشوهّت معه أبعادها اللحنية، وأحيانا قد مسّت قيمته وخصوصيته في أذهان المستمعين.

ومن منظور آخر فإن في الإقبال على اللحن الشعبي إعفاء من المراهنة على نجاح المحتوى الموسيقي، الذي اكتفى –أي اللحن الشعبي– باستمراريته وتوارثه جيلا بعد جيل كشهادة تؤكد ضمان مكانة مضمونه الموسيقي ومدى استحسانه وقبوله، ومن زاوية أخرى وبالأخذ بحجم المتسابقين لتسلق سلم الغناء الوطني طمعا بمكانته وسهولة توافر جهة إنتاجية تتبناه، كما انه –بلا شك– يتيح مجالا أسرع للانتشار والشهرة على الصعيد المحلي، حيث إن التسلّط على اللحن الشعبي قد سهّل على محدودي المواهب أن ينالوا تلك الميزات؛ إلى جانب تفادي صعوبة الأداء من جانب اللحن في ظل توافر لحن شعبي بسيط، وهو ما يفسّر تكرار بعض الألحان الشعبية في كثير من الأغنيات إلى حد تشابهها، بالتزامن مع افتقاد أو تغييب بعض الألحان الشعبية التي تعتبر أعقد نسبيا إذا ما قورنت بالدّارج منها.

والمفارقة هنا تتضح من خلال اللبس الحاصل على صعيد الأغنية التقليدية ومرجعياتها من الشعبية؛ فقد اعتمدت هذه الأغنية على الأصول التراثية، وتبدو في صورتين: الصورة الأولى يُحافظ فيها على اللحن الشعبي مع تغيير الكلمات، والصورة الثانية يحافظ فيها على النمط التراثي كلياً أي في اللحن والكلمات (القواسمة، 2008: 6).

وقد يكون سوء توظيف (فهم، استغلال) الصورة الثانية هو سبب المشكلة، حيث يزخر سفر الغناء الوطني الأردني بنماذج غنية من الأغنيات الوطنية التي تحمل نفحات الموروث الغنائي الشعبي دونما تقليد استهلاكي للمحتوى الشعبي الفعلي (الجوهري)، نجدها في ما تغنّى به توفيق النمري، وعبده موسى، وإسماعيل خضر ومحمد وهيب، وإلياس عوالي، وفؤاد حجازي وغيرهم من رواد الأغنية الأردنية.

مفارقات تعكس تناقضا واضحا مابين عمق الدور الوطني للأغنية؛ وهو ما يفسر التسابق نحو تأليفها وتلحينها وغنائها، مقابل كل ما تعانيه مؤخرا من سطحيّة في منظومة التعاطي مع المضمون الشعري أو/و الموسيقي، فتحول الشعر إلى سلاح وعتاد أو آليات حربية، واستُهلك اللحن الشعبي الأردني هنا وهناك ما بين التعاطي التقليدي مع اللحن من جهة؛ وما بين آليات التشويه بحجة التنويع، تلك المُستفِزّة التي فرضها المعنيون بهذا التشويه رغما عن ذائقة المستمع الأردني؛ وقُدّمت له على أنها نمط من التنويع الفني الموسيقي على اللحن الشعبي؛ قائم على الزجّ بكل ما يتاح من عتاد صوتية "مؤثرات صوتية غير موسيقية" من أصوات القصف وإطلاق النار من كل صفّ، انفجار القنابل ودوي الرصاص، وصراخ مبهم على انه من قبيل إشعال الحماس.

إن في مثل هذه الصور المشوهة التي تُرسل للأجيال دون قيود أو حدود قد تسببوا –ولو بشكل غير مقصود– في إيذاء أو تشويه وحتى تهميش لبعض الأجزاء من صورة الخدمة العسكرية، وبعض من قيمها النبيلة، ودور الجندي ومبادئ الجندية، متجاهلين أهم القيم الوطنية والأخلاقية السامية التي تقوم عليها، بعد أن قدم الغناء الأردني أروع الأغنيات بهذا الصدد، كأغنية "يا جيشنا يا عربي" التي

7 لقد حظيت الأغنية الأردنية الشعبية بالمركز الثاني للأغاني الشعبية العربية في المهرجان الأول للأغنية العربية الذي عقد في دمشق عام 1977 (حمام، 2010: 72).

رسخت في أذهاننا منذ عقود مضت، بفضل محتواها الشعري القيميّ، ومضمونها الموسيقي المميز، كما يفتقر غناء اليوم للتجديد في المحتوى في ظل التركيز على نمط واحد، إلى جانب تعزيز المفاهيم الإقليمية أكثر من الوطنية بعد أن كان غناؤنا قوميا وطنيا.

والغريب في الأمر أن نمط الغناء الوطني الحماسي ليس حديث العهد؛ إذ يشير الباحث القواسمة[8] إلى ما يزخر به سفر الغناء الوطني من الأهازيج الحماسيّة الأردنيّة التي ارتبطت بما نسميه النخوة، التي عرفها العرب قديماً في الأردن شعاراً خاصاً بكل قبيلة، وهي موروث يمتد في أجيال متعاقبة من السلف إلى الخلف، وهي نخوة تذكر بشجاعة جعفر بن أبي طالب الذي شارك في معركة مؤتة، وهو يردد أهزوجته:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

وأول هتاف نخوة كان لتلك التي رافقت مجيء الأمير عبد الله بن الحسين؛ إذ ردد الجنود المرافقون له نخوة: (خيال الهذلة عبد لي) موقعة على قرع الطبول، وسط نغمات الأهازيج الحماسية.

ولعل في ذلك ما يقودنا إلى تلك الفترة التي كانت مهمّة اختيار المطربين ووضعهم على سلم الأداء الفني المباشر منوطة بالإذاعة الأردنية، بمختصّيها؛ واختبارات القبول، ومتابعة المحتوى وغيرها، التي نفتقدها اليوم في ظل ما نستمع إليه.

وتكمن المفارقة في هذا الصدد بأنه ولمرحلة طويلة كان الإنتاج الغنائي الأردني يعاني ضمورا أو قصورا امتد حتى عهد قريب، متأخرا بذلك عن ركب الغناء وغزارة الإنتاج الغنائي العربي، فهل أصبح الغناء الوطني هو المنفذ لينهال علينا المستفيدون من هذا الانحراف بمسار الأغنية الوطنية بهذا الكمّ، وليصبح التوجه نحو الكم لا نحو النوع؟ وهو ما لا يمكن المهادنة بخصوصه في ظل خصوصية المهمات الوطنية السامية الملقاة على عاتق الأغنية الوطنية الأردنية.

وبهذا الشأن؛ فقد أشار الباحث عبيدات[9] إلى وجهات نظر بعض المختصين المعروفين على صعيد الأغنية الأردنية، من شعراء وملحنين وفنانين وموسيقيين، تنوعت آراؤهم ما بين آراء تناولت المحتوى الشعري، وأخرى تناولت المضمون الموسيقي، ومنها ما شملت البعد الفني العام. آراء حمّلت وزر التراجع لكاتب الكلمات، ومنها ما نسبته للملحن، وكذا الفنان في نظر بعض المختصين، ولكن كل تلك الآراء قد أجمعت على الاعتراف بتراجع الأغنية الوطنية الأردنية شكلا ومضمونا على الصعيد العام، وأنها تفتقد إلى تلك القيم الشعريّة والفنية الموسيقية التي اتصفت بها في الماضي، أي حتى بدايات القرن الواحد والعشرين.

وهنا لابد من الاعتراف بالذنب أمام ماضي الأغنية الوطنية الأردنية العريق –مع الاحترام لتلك التجارب المحدودة التي تعتبر اليوم أقرب لجماليات ذلك الماضي المميز بمضامينه الشعرية واللحنية والأدائية– الذي حمل تنوعا في أنماط ونماذج الغناء الوطني التي انقرض نِصفها ونصفها الآخر مهدد بالانقراض، ولابد من الوقوف على واقع الأغنية والمساهمة فيما قد "خرج عن إطار السيطرة" من حيث التوجيه الحاصل للأغنية بمرحلة من المراحل التي ارتبطت ببدايات القرن الحالي، لنجد الإجابة عن أسئلة: كيف باتت أغنيتنا الوطنية اليوم ساحة لحرب وهمية بعد أن كانت ساحة واحدة تجمع تناقضات السّلم والحرب؟ وكيف أصبحت حقلا يَزرع فيه ويَحصد من ليس له دراية ولا فن؟ وكيف فُرِض عليها أن تتحول لمسرح شهرة وكسب بعد أن كانت تخضع لهدف واحد هو التعبير عن حب الوطن، بكل ما يشتمل عليه من مسمّيات؛ هي أسمى مما يُنتج في هذا الصدد؟

نتائج الدراسة ومناقشتها

– تمثل الأغنية الوطنية قوة مزدوجة من حيث التأثير العاطفي الوطني والموسيقي الفني، وتعد نِتاج اندماج ما بين قوة العاطفة الوطنية وقوة التأثير الفني والقبول الجماهيري، صالحة لأن توظف في نشر فكر وطني وثقافي فني متكامل في آن معا، وفي ذلك ما يُسهل بث رسائل الوطنية الحقّة ومفاهيم الانتماء والوطنية الأمثل، بالتوازن مع الفكر الفني الموسيقي؛ في ظل ضرورة التوجّه لتعزيز الثقافة الموسيقية المجتمعية، بالإضافة إلى إمكانية إغناء ذلك بكلمات وطنية منتقاة من قيّم الشعر والقصائد الوطنية، وما أكثرها تلك التي تناجي الوطن وتتغنى بحبه، وبذلك فإن الأغنية الوطنية تمثل نموذجا ناجحا لأن تكون صورة للهوية الوطنية بشكل أو بآخر.

– ترتبط الأغنية الوطنية بمرحلة ليست بقصيرة من عمر الموسيقا والغناء، يعززها دورها في تقديم هذا الكمّ من الزخم التعبيري

8 مرجع سابق.

9 عبيدات، نضال. (2013) التغيرات التي طرأت على الأغنية الوطنية الأردنية منذ استقلال المملكة وحتى الآن. رسالة دكتوراه، كلية التربية الموسيقية، جامعة حلوان، مصر.

المعنوي والعاطفي، الشعري والموسيقي اللحني الغنيّ؛ المرتبط بحياة الإنسان ارتباطه بوطنه، وتعد بشموليتها واستمراريتها التي لا تتوقف عند عصر أو حد؛ تعدّ خير شاهد عاصر مختلف مراحل تطور الموسيقا والغناء المتعاقبة مذ كانت أغنية شعبية أولا؛ ثم نجدها تأثرت بمختلف أشكال التطور أو التغير الفني الموسيقي، منذ بدايات تطورها إلى أوج ازدهارها وانتشارها، ثم نجدها قد مرت بأكثر المراحل حساسية، وهي ظهور الأغنية ذات الملامح الشعبية كأغنية شعبية (دارجة) إلى جانب الأغنية الفلكلورية (الشعبية)، ثم في المرحلة التي تلتها وهي ظهور الأغنية المنهجية الدارجة التي ابتعدت أكثر في بنائها اللحني ومضمونها الشعري عن الأغنية الشعبية بمعناها المجرّد، وما تلاها من محاولات دمجها بمختلف أنماط الفكر الموسيقي والغنائي المعاصر، ضمن منظومة التأثر والتأثير، لتثبت الأغنية الوطنية قابليتها للتطويع ضمن مختلف الأنماط الغنائية، من منطلق أنها أغنية أولا وأخيرا؛ وأن الغاية منها تكمن في السعي لنشر مضمونها، ومخاطبة الأجيال كل بحسب ما يستهويه من فكر فني موسيقي غنائي، الذي بدوره يعدّ في العصر الراهن أهم من وجوب حسرها ضمن قالب أو إطار محدد، وبذلك تُشكّل خير دليل لمن أراد تتبّع مراحل تطور الغناء، فهي حاضرة في كل زمان ومكان، ولا تتبع طابعا، ولا تخضع لموسم حتى تظهر أو تغيب بحسبه.

– إن الوعي بأهمية دور الأغنية الوطنية وحساسية محتواها الشعري والفني يُسهم في الحفاظ على الشكل السليم لها، الذي يجعل منها صالحة لأن تمثل جانبا من الهوية الوطنية والثقافية والفنية، ويضمن هيبة هذه الأغنية أولا؛ ونجاحها وانتشارها ثانيا، في ظل ما تتمتع به من قبول يتجاوز حدود الأجيال والأعمار، حيث تتبع فكرة الإنصات لها من قبيل العاطفة الوطنية أولا، وهو ما يسهل استثمارها لغايات سامية أعمق من التثقيف بمعناه المجرّد، لتصبح مؤثرا قويا في تربية الأجيال على أسمى معاني الوطنية والانتماء، وهنا ما يؤكد المسؤولية تجاهها من حيث وجوب الرقابة على آليات تكوينها وانتقاء مضمونها الشعري والفني الموسيقي لتقوم بواجبها خير قيام.

– إن أغلب الأغنيات الوطنية الأردنية المعاصرة لم تحقق السمات (المتطلبات) الأساسية لتكوين الأغنية الوطنية، فلم ترتبط بالشعبية بآلية فنية ملائمة تحفظ للشعبية سماتها، ولم ترقى للتقليدية التي شكل الموروث الشعبي جوهرها فكونت منه أساسا وابتكرت على أساسه، وإنما اكتفت بالتقليد اللا معنوي للحن الشعبي، فلم تحقق ابتكارا، ومنها ما تحجج بالاعتماد على التوظيف غير المدروس للتوزيع الموسيقي والأدائي فشوه المحتوى اللحني بدلا من الابتكار عليه، كما أن أغلبها لم تحقق فكر المعاصرة المنبثقة عن مختلف أشكال التطور الفني الموسيقي، حيث تفتقر هذه الأغنيات إلى الكثير من الأسس في قيمة الشعر، واللحن، بالإضافة إلى احتوائها ما يُحظر على الموسيقا والغناء من استهتار بفكر المتلقي وتشويه قيَمِه بقصد كان أم عن غير قصد.

– إن ما يحدث اليوم على ساحة الغناء الوطني الأردني هو استغلال للمضمون الشعبي، ومحاولة للتشبّه ببساطته بغية الإسراع في الإنتاج والانتشار، والتستر على محدودية القدرات الأدائية لبعض المؤدين.

– يفتقر الغناء الوطني الأردني المعاصر إلى ماضٍ عريق تشارك بصنعه كبار الشعراء والملحنين والفنانين، فأصبحنا نفتقد كبار القصائد الوطنية الملحنة، التي باتت تقتصر على مناسبات وطنية بعينها، وأسماء كبار الشعراء العرب والأردنيين، وخبرة كبار الفنانين، وأصبحنا مهددين بخطر الجهل بأثر رجعي بقيمة القصيدة الوطنية المغنّاة، التي بدأت تظهر بوادرها من خلال استغراب الأجيال الجديدة لهذا النمط الغنائي، وعجز ذائقة البعض منهم عن استساغته ضمن إطار الغناء الوطني، وهو مؤشر على تراجع الذائقة الشعرية والموسيقية قبل الغنائية.

– يفتقد الغناء الوطني اليوم للمواضيع الوطنية ذات الطابع السلميّ (الأغنية الوطنية القديمة)، التي تغرس مفاهيم الوطنية والمواطنة بآلية مقنعة متوازنة؛ تعتمد صورا فنيّة شعرية راقية، واستبدلت بالمحتوى السطحي المضمن بكلمات القسوة والعنف أحيانا.

المصادر والمراجع

أبو المجد، حنان والخولي، سمحة (2006) تأثير موسيقا الشرق في بعض اتجاهات الموسيقا الغربية في القرن العشرين. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

جاسم، فراس ياسين (2010) مقومات التطريب في الأغنية العربية من وجهة نظر متخصصة. مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 64 (525 – 548)، جامعة بغداد، العراق.

حداد، رامي. والدراس، نبيل (2013) دلالات المكان في الأغنية الشعبية الأردنية. المجلة الأردنية للفنون، مجلد 6، عدد 3 (317–330)، جامعة اليرموك، الأردن.
حسين، يوسف السمانى. (2011) دور الأغنية الوطنية في نشر ثقافة السلام: الثنائي الوطني إنموذجا. رسالة ماجستير، مركز دراسات وثقافة السلام، الخرطوم: جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، السودان.
حمام، عبد الحميد (2010) الحياة الموسيقية في الأردن خلال 80 عاما. وزارة الثقافة، الأردن.
دكّاك، أمل. (2013) قضايا الجولان في أغنياته الوطنية (تحليل مضمون أغاني الجولان في الإذاعة السورية). مجلة جامعة دمشق عدد خاص (الجولان)، جامعة دمشق، سوريا.
صلاح الدين، بنان (2016) البعد الوطني في الأغنية الشعبية الفلسطينية خلال الفترة ما بين 1917–1948. مجلة دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 43، ملحق 2 (1131–1146)، الجامعة الأردنية، الأردن.
عبيدات، نضال (2013) التغيرات التي طرأت على الأغنية الوطنية الأردنية منذ استقلال المملكة وحتى الآن. رسالة دكتوراه، كلية التربية الموسيقية، جامعة حلوان، مصر.
غوانمه، محمد (2009) الأهزوجة الأردنية. وزارة الثقافة، الأردن.
فضيلة، يونسي (2011) استراتيجيات الخطاب في النشيد الوطني – دراسة تداولية. رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري تيزي-وزو، الجزائر.
القواسمة، محمد (2008) الهوية الوطنية في الأغنية الأردنيّة. بحث منشور، جامعة البلقاء التطبيقيّة، الأردن.
القيّم، علي (2014) الجمال الموسيقي. وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، سوريا.
النجمي، كمال (1993) تراث الغناء العربي بين الموصلي وزرياب.. وأم كلثوم وعبد الوهاب. دار الشروق، مصر.
Kamien, R. (2000) Music: An Appreciation. McGraw–Hill Companies, Inc. M.S.A.

المقالات:

إبراهيم، رؤى، (2012) الأغنية الوطنية بين الاستغلال السياسي والتعبير عن الوطن. صحيفة الراكوبة "الإلكترونية"، السودان.
Bin Talal, Hassan. Search to peace. Macillan, London, 1984.

Jordanian National Song: between Imitation and Absence of Regeneration

Aziz Ahmad Awni Madi, Safa' Hilal Haddad*

ABSTRACT

The Jordanian song, though it has many special and idiosyncratic features, has been declined through following the some current popular artistic methods in the Arab world that do not sui the Jordanian National Song. The specialty of the national songs is associated with their content objectives and their significant role in enhancing the national and cultural identity; and enhancing the understanding of real citizenship and patriotism.

Keywords: National Song, Jordanian Song, Nationalism, Cultural Identity.

* Faculty of Fine Arts, Yarmouk University, Jordan. Received on 19/2/2017 and Accepted for Publication on 13/5/2017.